ديفيد هيرست | نشر في ٢٤ أغسطس ٢٠١٤,

غزة بالنسبة لنتنياهو أشبه ما تكون بصندوق باندورا

ترجمة وتحرير عربي 21

لو أن بنيامين نتنياهو قرر عدم استخدام حجة الشبان المستوطنين الثلاثة الذين قتلوا ليقوم بشن حملة استئصالية ضد حركة حماس في الضفة الغربية ثم بشن هجوم على قطاع غزة، فإن كثيراً مما تعتبره إسرائيل مفيداً لها في الوضع القائم حينها كان سيسمح له بأن يزداد سوءاً بالنسبة للفلسطينيين.

ولكانت اتفاقية الوحدة بين فتح وحماس اتفاقية بالاسم فقط لا غير، تقفز من أزمة إلى أخرى، ومحمود عباس يتبوأ مقعده فيها كشريك أكبر. ولظلت رواتب ما يقرب من 50 ألف موظف حكومي في غزة غير مدفوعة، ولاستمرت حماس محتواة داخل صندوق صغير اسمه غزة، تعاني من مجاعة حادة في الأموال، ولظل تواصلها مع العالم الخارجي محظوراً على الجانب المصري بشكل أكثر حزماً مما هو على الجانب الإسرائيلي.

إلا أن الحملة التي تشنها إسرائيل على غزة منذ 46 يوماً غيرت فيما يبدو كثيراً من ذلك، فقد أعادت توحيد الفصائل الفلسطينية، ولو على الأقل مؤقتاً، بطريقة ما كان لأي حوار في الدوحة أن يحلم بها، واضطر محمود عباس إلى أن ينأى بنفسه بعيداً عن إدانة إطلاق الصواريخ والإصرار بدلاً من ذلك على كسر الحصار، وأياً كان انزعاجه فيما وراء الكواليس من الرفض الفلسطيني للمبادرة المصرية، إلا أنه هو ومصر جرا باتجاه موقف المقاومة، وأنى له أن يفعل غير ذلك.

أما حماس، فقد ارتقت بسبب حملة القصف التي شنت عليها وعلى غزة إلى واجهة القضية الفلسطينية، مما ضمن لها موقعاً ريادياً حول طاولة منظمة التحرير الفلسطينية، كما ارتقى داخل حماس

جناحها العسكري، كتائب الشهيد عز الدين القسام. ونجم عن استهداف عائلات قادة حماس العكس تماماً مما كان يتمنى الإسرائيليون، فلا يمكن لأحد أن يقول، ولم يقل بذلك أحد في غزة ذاتها، إن المقاتلين جاثمون في أنفاقهم بينما يتلقى المدنيون كل الضربات. كان مدنيوهم، وكانت زوجاتهم وأطفالهم، من أوائل من قتلوا.

في بيانه الذي ألقاه يوم الخميس، أمر الناطق باسم كتائب القسام أبو عبيدة الوفد الفلسطيني الانسحاب من القاهرة، واصفاً المفاوضات هناك بأنها رقصة العفاريت، وذلك بعد محاولة اغتيال محمد الضيف، القائد العام للجناح العسكري، وقال:

"فلا عودة لهذا المسار بعد اليوم، وأي حراك على هذا المسار لا يلزمنا بالمطلق، ونحب أن نؤكد أن العدو قد ضيع فرصة ذهبية للوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار بسقف مطالب أدنى مما عليه أن يدفع اليوم بعد جرائمه وفشله".

ما من شك في أن نبرة الحديث تنبئ بالكثير، فها هي كتائب القسام تبلغ ليس فقط حماس وإنما أيضاً الفصائل الأخرى الممثلة في الوفد بما يتوجب عليها أن تفعله. لم يسبق لكتائب القسام أن أصدرت من قبل بياناً سياسياً كهذا. إن كان ذلك يدل على شيء فإنه يدل على ما يتمتعون به من ثقة بالنفس.

من تداعيات الحرب على غزة تلك الجهود التي تبذلها أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية حالياً لوقفها. قبل أسبوعين صدر عن ثمانية وعشرين وزير خارجية في الاتحاد الأوروبي بيان طالبوا فيه بنزع سلاح الفصائل الفلسطينية في غزة، وذلك انسجاماً مع ما كانت تطالب به إسرائيل وكذلك مع الشروط المطلوبة لاستئناف محادثات الوضع النهائي. إلا أنهم الآن وصلوا إلى فهم أكثر واقعية يفيد بأن نزع السلاح غير قابل للتحقيق، وهم الآن بصدد الانتقال إلى موقف آخر خلاصته فتح الحوار حول الآليات التي من شأنها الحيلولة دون إعادة التسلح. ولا أدل على ذلك من أن مسودة قرار أممي أعدته الدول الأوروبية المعروفة بـ E3، وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا، لم ترد فيه عبارة "نزع السلاح" إطلاقاً.

مازال ينتظر من نتنياهو أن يقترح صيغة ما على الجناح اليميني في حكومته، ولذلك فإن كل ما سبق مجرد كلام. ولكن كلما طال أمد هذه الحملة العسكرية، سيتضاءل احتمال بقائها بلا ألم لإسرائيل، التي إما أن تشن سلسلة من الغارات الدموية الجديدة على مركز مدينة غزة، وقد حذر الجيش الإسرائيلي من مغبة ما قد ينجم عن ذلك من تداعيات، أو أنها ستجد نفسها مضطرة للتفكير بشكل متزايد بخطوات من شأنها أن تؤدي إلى رفع الحصار. لعله يشعر أنه بين خيارين أحلاهما مر، وأمام مهمة خرجت عن طورها، إذ تؤذن بأن تتحول إلى ما يناسب حماس. لم يكن نتنياهو أصلاً ينشد حرباً طويلة، وبالتأكيد لم ينشد حرباً تؤدي إلى تنامي معدلات انطلاق صواريخ حماس مع مرور الزمن بدلاً من أن تؤدي إلى تناقصها.

بدأت الجولة الثالثة من الصراع انطلاقاً من الرغبة بتحقيق تفوق سريع، إذ كان نتنياهو يأمل في أن يمكنه قطف رأس الضيف من ادعاء النصر. ولكن حتى لو تمكنت إسرائيل من قطف رأس الضيف فما كان ذلك ليغير من الأمر شيئاً، فسيرة الضيف تبين أنه بدأ حياته النضالية برمي الحجارة وانتهى به الأمر قائداً لما ينبغي أن يسمى الآن جيشاً صغيراً لديه ترسانته الخاصة به من الصواريخ. إذن، سيمضي جيل آخر من الشباب الفلسطينيين على نفس خطى الضيف.

تداعى آلاف الشبان الفلسطينيين للمشاركة في جنازة قادة القسام الثلاثة الذين ضرجوا بدمائهم في الغارات الجوية التي تلت محاولة اغتيال الضيف، وكان هؤلاء الشباب في الجنازة المهيبة في مدينة رفح يقسمون على الانتقام لقادتهم. كلما اغتالت إسرائيل جيلاً من قادة حماس، يحل محله جيل آخر أكثر فاعلية، وترجع حماس أقوى من الناحية العسكرية.

ولكن، ليس الشباب في فلسطين وحدها هم الذين تجذبهم قضية المقاومة، بل السنة في كافة أرجاء

العالم العربي، وهو تحول يجدر بإسرائيل أن تأخذه على محمل الجد. بالنسبة لإسرائيل، قد يبدو الحصول على مساندة مصر والمملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة تحركاً ذكياً على المدى القصير، إلا أن هذا الدعم السري ما لبث أن انكشف الغطاء عنه إذ فضحته الحرب على غزة.

أما على المدى المتوسط والبعيد، فلن يصب مثل هذا التحرك في مصلحة بلد محاط من كل مكان بالأقطار العربية السنية، خاصة بعد أن عادت القضية الفلسطينية لتحتل مكان الصدارة في اهتمام العالم العربي الذي يعج بالصراعات. ويجدر هنا ملاحظة أن الممالك الخليجية والأنظمة العسكرية الدكتاتورية التي ساندت إسرائيل في حربها على حماس هي نفسها تلك الأنظمة التي سخرت أموالها ونفوذها لدعم الثورة المضادة على الربيع العربي. وبذلك توحدت القضية الوطنية الفلسطينية في نضالها ضد الاحتلال مع الانتفاضة العربية ضد الأنظمة الدكتاتورية المسنودة من قبل الغرب. وباتت كتائب القسام شعاراً مقاتلاً عابراً للحدود يتجاوز رفح، ويخاطب فيمن يخاطب شباب مصر أيضاً.

هل كانت تلك هي نية نتنياهو حينما شن هذه الحرب؟ ربما لا، ولكنه قد يكون الواقع الذي لابد أن يتعايش معه إلى أن يتمكن من تغييره. لقد أصبحت غزة بالنسبة له صندوق باندورا.

** صندوق باندورا هو الذي يحمل كل شرور البشرية بحسب الميثولوجيا اليونانية الشهيرة.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/3520/